

أثر العروبة والإسلام
في نشأة فنون
العمارة والزخرفة الإسلامية

ليس من شك في أن من أبرز معالم الحضارة الإسلامية فنون العمارة والزخرفة الإسلامية التي بلغت درجة من الرقي والانتقان والجمال تضمنها في مستوى أدنى الفنون وأكثرها أصالة وتأنقاً . (١)

ففي مجال العمارة مثلاً بلغت المآثر الإسلامية سواء من حيث التخطيط أو أساليب البناء والزخرفة درجة عالية من الفخامة والجمال ، وزاول المعماريون المسلمون تشييد شتى أنواع المباني ، كما خلفوا لنا أنماطاً كثيرة من المآثر الإسلامية من مساجد ومدارس (شكل ١) وقلاع وقصور وأسواق وأربطة ومطابخ ومساكن وغير ذلك من المباني الدينية والمدنية والعسكرية . كما غططوا المدن ، وعبدوا الطرق وشقوا القنوات وشيدوا القناطر . ووصلنا نماذج كثيرة من هذه المنشآت والمآثر في مختلف الأقطار الإسلامية .

وفضلاً عن ذلك فإن العمارة الإسلامية تتميز بوحدة وعناصر معمارية خاصة بها كالمآذن والقباب والمداخل والمعقود والأعمدة والمقرنصات (٢) (انظر شكل ١)

أما في مجال الفنون التشكيلية فقد ترك لنا الفنانون المسلمون زخارف جدارية ومنحوتات حجرية وجمسية وتشكيلات من الخزف والزجاج والمعادن والعاج تمتاز رغم قلتها برقيتها ومستواها الفني الرفيع .

وبالإضافة إلى العمارة والفنون التشكيلية احتلت الفنون الزخرفية الإسلامية مركزاً أساسياً بين أفرع الفن الإسلامي : إذ تفوق المسلمون في شتى الفنون التطبيقية مثل فنون الكتاب من تجليد وتذهيب وخط وتصوير ، ومثل فنون الخزف والخشب والنسيج والسجاد وغيرها . ونشأ كل من هذه الفنون على أسس متينة ، وتطوّر حسب طرز متنوعة ، وشمل أنواعاً مختلفة وأدوات عدة ، وكان له طرقه الصناعية الخاصة به ، وعناصره الزخرفية المميزة له .

وما يؤسف له أن ظهرت نزعة بين بعض دارسي الفنون الإسلامية تهدف إلى إنكار فضل العروبة والإسلام في تكوين هذا التراث الإسلامي العظيم سواء في مجال العمارة أو الزخرفة .

فمن جهة زعموا أن العرب لم يكن لهم من الذوق الفني أو المهارة الصناعية أو الحذق بأساليب البناء ما يؤهلهم للإسهام الجدى في نشأة وتطوير فنون العمارة والزخرفة في الاسلام ، ومن ثم أرجعوا نشأة العمارة والفنون الاسلامية الى تأثيرات جاءت من الشعوب غير العربية التي دخلت في الاسلام ، ومن الحضارات الأخرى المعاصرة والقديمية .

ومن جهة أخرى افترضوا أن الفخامة والثائق والزخرفة التي حققتها الفنون الاسلامية تتعارض مع تعاليم الاسلام التي تدعو - حسب قولهم - الى الزهد والتشقق واليهد عن التزين ، واستنتجوا من ذلك أن الفنون الاسلامية لا بد أنها قد استوحيت من مبادئ أخرى غير اسلامية (٣) .

والحق أن هذه المزاعم نتجت عن جهل بأوضاع العرب قبل الاسلام ، وعن نظرة سطحية سواء الى تعاليم الاسلام أو الى حقيقة الفنون الاسلامية نفسها .

وفي رأينا أن فنون العمارة والزخرفة الاسلامية - شأنها شأن سائر مظاهر الحضارة الاسلامية - نشأت على أساس قويم من المروية والاسلام ، وظلت رغم تطورها وتفرعها محتفظة بالروح العربي الاسلامي الذي كان له الفضل الاول في اصالتها ووحدةها .

احوال العرب الفنية عند ظهور الاسلام :

اننا لا نعرف الكثير عن الحالة الفنية في بلاد العرب عند ظهور الاسلام ، وان كان ما وصلنا من التراث الادبي يدل على أن العرب في ذلك الوقت كانوا قد بلغوا مستوى رفيعا جدا في الذوق والاحساس الفني بصفة عامة ؛ بحيث تسنى لهم أن يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم ، ويشهدوا باعجازه .

ومع ذلك فيمكننا في ضوء ما وصلنا من شواهد قليلة أن نتعرف على بعض المظاهر الفنية في بلاد العرب .

ويتضح مما وصلنا من الآثار والتراث الادبي أنه كان للعرب قبل الاسلام فن ميماري ازدهر نوع منه حتى انتشر خارج الجزيرة العربية : ونعني بذلك عمارة الحصون والأطام التي ازدهرت في بلاد العرب منذ بداية العصر الميلادي (٤) . ومن أشهر هذه الحصون في بلاد اليمن قصر غمدان ويثيون وسلحين التي ورد ذكرها في الادب الجاهلي . قال ذو جند الحميري يعني غمدان :

وغمدان الذي حدثت عنده
بمنهمة وأسفله جسرون
بمرمرة وأمسلاه رخام
مصاييح السليط تلوح منه
ونفختيه التي خرست اليه
فأصبح بعد جدته رمادا
بنوه مسكما في رأس نيبق
وحر الموجسل اللشق الزليق
تعام لا يقيب في الشقوق
إذا يسمي كسوش من البروق
يكاد البر يهمر بالفسوق
وغير حسنه لهب العريق (٥)

وقال أيضا مشيرا الى قصرى بينون وسلمين وعدم أرباط لهما :

هونك ليس يرد الدمع مافاتا
أبعد بيتون لا عين ولا أثر
لا تهلكى أسفا في أثر من ماتا
وبعد سلمين بيني الناس أيباتا

وتدل بعض الشواهد على أن هذه الحصون أو الأطم كانت تقام عند الميسون وأبار المياه على طول طرق القوافل الممتدة عبر جزيرة العرب . وكانت في كثير من الأحيان ذات تخطيط مربع ، وتتألف من عدة طبقات ، ويحف بها أسوار ، ولها رحاب ومداخل حصينة ، كما كانت مئينة البنيان يدخل في تشييدها استخدام الصخور الضخمة والأحجار المهذبة بالإضافة الى قوالب اللبن الصلبة ، وكانت جدرانها تكتس بالجص ، وتزخرف أحيانا بالصور والنقوش ، كما كانت تضم بداخلها بعض الآثار .

وكانت هذه الأطم تتخذ مساكن للقبائل والبطون التي تشرف على طرق القوافل ، وأسواقا للتبادل التجارى ، ومستودعات للمؤن والذخائر ، وأبراجا للمراقبة ، ومنشآت للاجتماع والتشاور ، وملاجئ يحتمن بها عند الأخطار .

ومن المعروف أنه كان بالمدينة المنورة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم حصون وأطم بلغ عددها ١٩٩ وورد ذكر بعضها في أخبار غزوات النبي (ص) . وترجع بداية تعمير الأطم بالمدينة المنورة الى العماليق . وكان آخر أطم بنى بالمدينة هو المعرض أطم بنى ساعدة من الغزرج وقد أذن لهم النبي (ص) باتباعه عند هجرته .

ومن أطم المدينة المنورة التي وصلتنا آثارها أطم أحيه بن الحلاج الأوسى المسمى بالضمحيان . ويقع على نشر الحرة في الجنوب الغربى من مسجد قباء وهو مشيد بعبارة الحرة ويبلغ ارتفاع الأجزاء الباقية منه حوالى ١٤ مترا ، ويوجد بالقرب منه بئر مهجورة يقال أنها بئر الأطم ، ومن المرجح أنها كانت داخلة في محيطه .

وكان من أهل المدينة من يتقنون تشييد الأطم وعمل بعضهم في بنائها
خسارج المدينة . (٧)

وحلى نمط الحصون العربية شيدت خارج جزيرة العرب حصون بلغ من انتشارها أن وصلت بيزنطة (٨) * ومن المرجح أن القصور التي بناها الامويون فيما بعد في صحراء الشام مثل المشتى والبحر الغربي والبحر الشرقي والعلوبة وغيرها قد تأثرت في بنائها بهذه الحصون *

وبالإضافة الى هذه الدلائل المادية فإن تكرار الإشارة الى الجسام والمناظر والتشثيل بها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فضلاً عن الادب الجاهلي يشهد بصلة العرب الوثيقة بهذه الفنون : إذ ورد في القرآن الكريم ذكر الحصون (٩) والصياصي (١٠) والبروج (١١) والقصور (١٢) والغرف (١٣) والجدران (١٤) والصروح ١٥ والقصر المحصنة ١٦ *

كما ضرب المثل بالبنين الذي يشد بعضه بعضاً في حديث النبي صلى الله عليه وسلم ١٧ *

هذا من حيث الممارسة أما من حيث الفنون التشكيلية أي النحت والتصوير فمن المعروف أن العرب قبل الاسلام كانوا يمدون الاصنام : أي أنهم ولا شك قد وجد بينهم من كان يصنع الصور والتماثيل التي كان يتعبد اليها العرب في الجاهلية ، وقد وصلنا أسماء بعضهم مثل أبي تجزاة (١٨)، كما أشارت الاحاديث النبوية الشريفة الى طبقة المصورين الذين كانوا يصنعون الاصنام ، ونهتهم عن هذا العمل ، وحذرتهم من مزاوله صناعة الاصنام من تماثيل وصور *

من ذلك ما أورده البخاري في باب التماثيل من كتاب اللباس في صحيحه عن مسلم أنه قال : « كنا مع مسروق في دار يسار بن نعيم فرأى في صفته تماثيل فقال : سمعت عبد الله قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « ان أشد الناس هذا يوم القيامة المصورون » (١٩)

وروي في باب بيع التماثيل التي ليس فيها روح وما يكره من ذلك ، من كتاب البيوع ، عن سعيد بن أبي الحسن أنه قال « كنت عند ابن عباس - رضى الله عنه - إذ أتاه رجل فقال : يا أبا عباس اني انسان انما معيشتي من صنعة يدي ، وانني أصنع هذه التماثيل فقال ابن عباس : لا أحدثك الا ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من صور صورة فإن الله معذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ فيها أبداً ، فربا الرجل ربوة شديدة واصفر وجهه : فقال : ويعك ، ان أبييت الا أن تصنع فليكن بهذا الشجر : كل شيء ليس فيه روح » (٢٠)

ويوضح من هذا كله أن العرب كانت لهم خبرة بالفن التشكيلي بصرف النظر عن الأهداف التي كانوا يرمون اليها *

ومن جهة أخرى لا شك وأن العرب كانت لهم خبرة بأنواع الفنون التطبيقية ولا سيما الفنون الوثيقة الصلة بمهنتهم مثل صناعة الفخار والعلی والتسبیح والجلود والأسلحة وما أشبه ذلك وقد ورد في أدبهم ما يشهد على ذلك .

ذكر الميداني أن مارية بنت ظالم بن وهب أهدت الكمية قرطبيها وكان يحملها درتان كبيرتان في حجم بيض الحمام حتى أنه ضرب بهما المثل فقيل : «غذه ولو بقرطی مارية» .

وتسب بعض الشعراء سنانا إلى صانعه فقال :

قناسة ملزب أكرهت فيهما شراعيا مقسالة ظلماء (٧١)

ووصلنا أحاديث نبوية شريفة تشير إلى اتخاذ العرب لبعض التحف الفنية مثل المنسوجات المزوقة بالصور وتماثيل الخيول ذات الاجنحة والسيوف والعلی وغيرها .

أورد البخاري في باب « من كره القمود على الصور » من كتاب اللباس في صحيحه من عائشة رضي الله عنها أنها اشترت تمرقة فيها تصاویر فقام النبي صلى الله عليه وسلم بالباب فلم يدخل فقالت : أتوب إلى الله ما أذنبت ، قال : « ما هذه التمرقة ؟ قالت لتجلس عليها وتوسدها » قال : « وان اصحاب هذه الصور يمدحون يوم القيامة » يقال لهم أحيوا ما خلقتهم ، وان الملائكة لا تدخل بيتا فيه الصور . (٢٢)

وأورد البخاري كذلك في باب « ما وطئ من التصادير » من كتاب اللباس أن عائشة رضي الله عنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر وقد سترت سهوة لي بقرام فيه تماثيل فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم تلون وجهه وقال : يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله » قالت : فقطعتاه فجعلنا منه وسادة أو وسادتين . (٢٣)

وجاء في « ربيع الأبرار » للزمخشري في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، وفي سهوتي ستر ، فهبت فكشفت ناحية الستر من بنات لي فقال : ما هذا ؟ قلت : بناتي ، ورأى بينهن فرسا له جناحان قال : فرس له جناحان ؟ قلت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك حتى بدت نواجذه » (٢٤) .

كما جاء أن الرسول صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم وعليه مرط مرسل من شعر أسود وأنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي وعليه من هذه المرحلات ، وجاء في حديث عائشة رضي الله عنها : « وذكرت الانتصار فقامت كل واحدة إلى مرطها المرسل » . (٢٥)

وفضلا من ذلك فقد ورد ذكر الغاتم (٢٦) والسيف (٢٧) والكبر (٢٨) في أحاديث نبوية شريفة .

وهكذا نخرج من ذلك كله بأن العرب كانت لهم تقاليدهم الفنية عند ظهور الاسلام ونشأة الحضارة الاسلامية ومن ثم لم يكونوا حالة على الحضارات الاخرى في هذا المجال . وحينما دخل العرب المسلمون الاقطار التي كانت خاضعة للفرس الساسانيين وللرومان البيزنطيين والتي شملت ما بين المحيط الاطلسي غربا وحدود الهند شرقا وسارح أهلها الى الانضواء تحت راية الاسلام والعمل في ظله ساعد تفوق العرب السياسي والعربي والغلبي في ذلك الوقت على سيادة الطابع العربي الاسلامي في هذه الاقطار .

وكان العرب المسلمون على قسط واخر من سعة الافاق السياسي والحس الحضاري بحيث حافظوا على التقاليد الفنية والصناعية النافعة في البلاد التي فتحوها . بل وعملوا على تقديسها وتطورها في الطريق السليم .

واستطاعت الدولة الاسلامية الناشئة - بفضل الروح الاسلامي الجديد والخبرات الصناعية والفنية التي يتمتع بها شعوبها من عرب وفرس وروم وقبط وغيرهم - أن تبتكر فنا جديدا يمتاز بامتزاج التقاليد الصناعية المختلفة وبسيادة الطابع العربي الاسلامي . (٢٩)

الاسس العربية الاسلامية لفنون الاسلام :

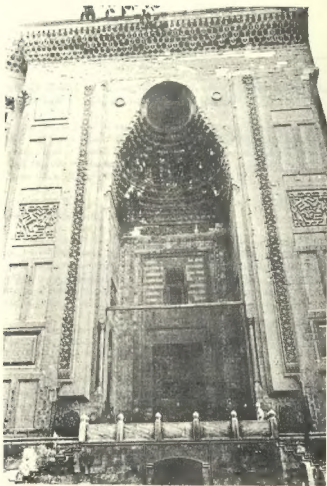
قامت الفنون الاسلامية على اسس عربية راسخة وتكونت حول محاور اسلامية صحيحة .

وأول هذه الاسس او المعاور المسجد الذي يعتبر أهم معالم الفنون الاسلامية . وتعمير المسجد من أفضل القربات الى الله حيث يقول سبحانه وتعالى : « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الصلاة وآتى الزكوات ولم يخش الا الله فسمى اولئك أن يكونوا من المهتدين » (٣٠)

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاء بنى الله له بيتا في الجنة » (٣١)

والوظيفة الاساسية للمسجد هي اقامة الصلاة : يقول الله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه » (٣٢) والصلاة عماد الاسلام من أركانها فقد أقام الذين ومن تركها فقد هدم الدين .

ولم تقتصر وظيفة المسجد على الصلاة بل كان المسجد أيضا مركز الحكم والادارة



(شكل ١٠)

مدخل مدونة السلطان حسن بالقاهرة وتشاهد المقرصات (أعلى)

والدموع والتشاور كما كان محل القضاء والافتاء والعلم والاعلان وغير ذلك من أمور الدين والدولة - ومن ثم علت منزلة المسجد عند المسلمين .

ومن المعروف أنه ما أن دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة عقب الهجرة حتى شرع في بناء المسجد : فمهدت قطعة من الأرض اشتراها النبي (ص) من غلامين يتييمين بالمدينة ، ثم خطط المسجد ، وأعدت مواد البناء من حجارة ولبن وجندوع تنكيل وغير ذلك . واشترك النبي (ص) والصحابة في أعمال البناء حتى تمت إقامة المسجد النبوي الشريف (٢٣) كأول عمل معماري هام في الإسلام .

وحين كان النبي (ص) وصحابته يضعون أساس المسجد النبوي كانوا في الوقت نفسه يضعون أساس فن العمارة والزخرفة الإسلامية :

اذ تطورت عمارة المسجد النبوي بعد ذلك على أساس التصميم الذي يدها النبي (ص) ، وظل هذا المسجد نموذجاً يحتذى مشيدو المساجد في الاقطار الإسلامية الأخرى طوال القرون الأربعة الأولى من الهجرة مثل مساجد البصرة والكوفة والقسطنطين والقروان وبني أمية في دمشق (٢٤) ، كما صار طرازه أهم الطرز المعمارية لبناء المساجد في العصور المختلفة ، وكان الدافع على ذلك الحرص على الاقتداء بالنسبة النبوية الشريفة - (٢٥) .

وفي مباني المساجد تطورت أساليب التخطيط والتصميم بالاضافة الى العناصر المعمارية التي انتقلت الى سائر أنواع المباني الإسلامية من قصور ومدارس وقلاع وغير ذلك فضلاً عن الأساليب الزخرفية من هندسية ونباتية وكتابية .

وهن طريق العناية بأثاث المساجد والرغبة في تجميلها ازدهرت الفنون الزخرفية والتطبيقية الإسلامية : اذ تطورت فنون المعادن مثلاً بفضل العناية بالاثاث المعدني بالمساجد كالأبواب والثريات والشمعدان والمساند بالإضافة الى النوافذ والأبواب المسقفة ، وتطورت الصناعات الخشبية بمختلف أنواعها تبعاً للاهتمام بالاثاث الخشبي من منابر وكراسي وأرمان ، وتطورت فنون الزجاج من طريق العناية بمصاييح الاضاءة والمشكوات وزجاج النوافذ، وارتقت فنون السجاد بفضل الاهتمام بفرش المساجد : بل ان هذا الفن الذي نبغ فيه المسلمون وكاد أن يختص بهم استمد اسمه من لفظة المسجد نفسها .

والى جانب المسجد وجد محور عربي إسلامي آخر كان أساساً رئيسياً من أسس الفن الإسلامي هو المسجد هو المسجد الشريف .

وقد أطلق اسم المصحف على القرآن الكريم المدون والم محفوظ بين دفتين (٣٦) ، واشتقت هذه التسمية من غير شك من لفظة مصحفه التي ورد ذكرها في قول الله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » رسول من الله يتلو صحفا مطهرة • فيها كتب قيمة • (٣٧) وفي قوله تعالى : « كلا انها تذكرة • لمن شاء ذكره • في صحف مكتومة • مرفوعة مطهرة • بأيدي سفرة • كسرام بررة • » (٣٨)

وبدأت العناية الشكلية بالمصحف الشريف بعد جمعه في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثم بعد نسخ المصاحف المعتمدة في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه (٣٩) • وكانت هذه العناية من أهم الأسباب التي أدت الى ازدهار عدد من الفنون الاسلامية من جهة ، والى تطوير أنماط من الزخارف الاسلامية من جهة أخرى • ومن الفنون التي تقدمت بفضل الحرص على صيانة المصحف الشريف فن تجليده الكتب الذي ازدهر على يد المسلمين تبعا لعنايتهم بخلاف المصحف الشريف : سواء من حيث الصنعة أو الزخرفة مما حدا بالاوربيين الى تقليده •

ومن أبرز معالم التجليد الاسلامي التي استخدمها الاوربيون في عصر النهضة الاوربية « لسان الغلاف » الذي استعمل لحفظ أطراف الصفح الخارجية من جهة ، ولتأمين مواضع الوقوف بعد القراءة حتى يمكن متابعة القراءة في المرة التالية من جهة أخرى • وكان « لسان » - مثله مثل ظاهر الغلاف وباطنه - مجالا تجلت فيه براعة الفنان المسلم في ابتكار الزخارف الجميلة (٤٠) ، واستخدام شتى الاساليب الصناعية من ترصيع وتذهيب وتلوين وضبط وتخريم وطبع وغير ذلك •

وشاع على ألفة الكتب استخدام نمط من الزخرفة اقبل صنّاع السجاد على استخدامه وظهر تأثيره في زخرفة أبواب المساجد المصنوعة من الخشب المصنوع بالنحاس ويتألف هذا النمط الزخرفي من صرة كبيرة في الوسط بداخلها زخارف نباتية منسقة بطريقة هندسية ، ومن ربيع صرة في كل ركن من الاركان ، ومن اطار زخرفي يحيط بالمساحة المستطيلة كلها •

وبالإضافة الى فن التجليد ازدهر أيضا فن التذهيب • وقد تطور هذا الفن من العناية بتعيين مواضع التقسيمات في المصحف الشريف مثل فواصل الآيات ، وبدايات السور والأحزاب والأجزاء ومواضع السجّدات فضلا عن الهوامش وسفحتي البداية والنهاية ، حيث زودت هذه المواضع بالزخارف • (٤١)

ثم تطورت العناية بهذه المواضع الى أن صار يستخدم التذهيب في زخارف المصحف التي وصلت درجة رفيعة من الجمال والاتقان حتى صارت تماذج يحتذىها المخرقون في سائر الفنون الاسلامية •

غير أن أهم العنوس التي كان للمصنف الشريف فضل كبير في تجديدها الخط العربي

ويمتد الخط العربي أحد المدور الأساسية الثلاثة التي تفرعت منها العنوس الإسلامية وذلك بالإضافة إلى المسجد والمصنف الشريف ، وقد ظل في الوقت نفسه أهم العوامل المحركة لوعدها على اختلاف العصور والاقطار . (٤٢)

والخط العربي هو الفن العربي الأصيل بحق . وقد نقله العرب إلى الاقطار التي فتحوها كما نقلوا إليها اللغة العربية والإسلام سواء بسواء ، كما تطور على يد العرب إلى فن جميل احتل مكان الصدارة بين الفنون الإسلامية . وكان لكتابة القرآن الكريم بخط عربي وتلاوته في المساجد والمصاحف والتعميد بذلك فضل كبير في إعمار شأن الخط العربي وإجلاله ذلك أنه صار يرتبط في أذهان المسلمين بالقرآن والتلاوة والعبادة ، ومن ثم لم يخف إعجاب المسلمين بالخط عند حد ما فيه من قيمة جمالية وعلمية ، بل صار يشغل أيضا بالماطرة الدينية ، وهكذا صار المسلمون ينظرون إلى الخط نظرة إكبار وتقدير ، ويتدفقونه بمتعة روحية بالإضافة إلى اللذة الجمالية .

على أن العرب كانوا يجلون الكتابة ويقدرونها فيما قبل الإسلام حتى أنهم أحاطوا نشاطها ببعض الأساطير كما نسوها إلى بعض الأنبياء (٤٣) . ويستشف من الأخبار التي وصلتنا أنهم كانوا يضمون الكتابة في مرتبة أعلى من العطف ، وكانت القصيدة التي تحوز تقديرهم تكتب بماء الذهب وتعلق في الكعبة إجلالا لشأنها . (٤٤)

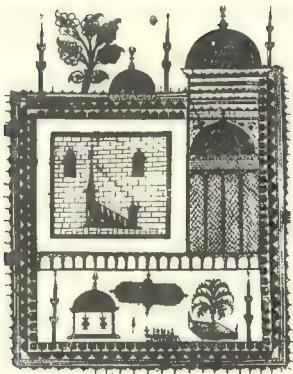
وتأكدت نزعة تعظيم الكتابة على الخط عند العرب بعد الإسلام ، وعمر ذو الرمة في ذلك حين قال لعيسى بن عمر : « أكتب شعري فالكتاب أعجب إلى من العطف لأن الاعرابي يسي الكلمة قد تمب في طلبها يوما أو ليلة فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم يشهد بها الناس » (٤٥) .

وشرب النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين المثل في العناية بالكتابة حين كان يطلق سراح الأسير إذا علم الكتابة لمشره من صبيان المسلمين .

ويتجلى تقدير العرب للكتابة والخط فيما ورد منهم من نشر ونظم في الأشادة بالخط الجميل ، وفي كثرة التشبيه في الادب بالخط وأدواته وبالحروف وأشكالها . ومن أمثلة ذلك ما جاء من أن هن بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : « الخط الحسن يزيد الحق وضوحا » .

وقال ابن المعتز :

إذا أخذ القوطان خلت يمشه تفتح نورا أو تنظم جوهرا (٤٦)



(شكل ٢)

مسورة للحرم النبوي الشريف مرسومة
على بلاطة من الخزف مؤرخة ١١٤١ هـ

وبالغ البعض في تقدير الخط العربي حتى رجعوا أن للحروف أمرارا وقوى خفية، وربطوا بين هذه القوى وبين نسب الحروف العددية ، وخصوا كل حرف بطبيعة من الطبائع ، وقرنوا بين عالم الطبيعة وبين الحروف * (٤٧)

وكان من مظاهر العناية بالخط العربي ما أدخله علماء اللغة على الكتابة من علامات الأعراب والأصمام حتى يمكن تفادي الخطأ في القراءة لاسيما في تلاوة القرآن الكريم * (٤٨)

وبذل العرب جهودا متواصلة في سبيل الوصول بالخط العربي الى مستوى فني رفيع ، كما أسهم الخطاط العربي في اخراج معظم التحف الفنية الاسلامية سواء في مجال العمارة أو الفنون التطبيقية أو الفنون التشكيلية : اذ لم يقتصر عمل الخطاطين على الكتابة على الورق بل امتد الى الكتابة على النصب الفنية والمعمارية بواسطة التلوين والترصيع والحفر سواء في الجص أو الخشب أو الحجر أو غير ذلك من مواد البناء والزخرفة *

وأما الخط العربي الى العنون الاسلامية المختلفة طابعه الجمالي القائم على التناصب ، ومن ثم تميزت الفنون الاسلامية في الدرجة الاولى بالطابع الزخرفي الذي يعتمد بصفة أساسية على الخط والمقطة وحسب التناصب بينهما *

ويتضح أثر الخط العربي بجللاء في الزخرفة الاسلامية : اذ تأثرت العناصر والوحدات الزخرفية الاسلامية بأشكال الخط العربي ، وانه لتتخرج أحيانا حروف الخط بالوحدات والعناصر الزخرفية الاخرى من نباتية وهندسية وحيوانية حتى يصعب التمييز بينهما *

ودخل الخط العربي كعنصر زخرفي هام في منتجات الفنون الاسلامية المختلفة وذلك لما له من ميزة زخرفية واضحة * ويتأكد هذا الدور الزخرفي اذا لاحظنا أنه في بعض الأحيان كانت التحف تشتمل على حروف وكلمات عربية لا معنى لها ، كما أن الكتابة تصل أحيانا درجة من الضموض بحيث تتعذر قراءتها وتفسرها ، ومن ثم كان دور الكتابة يقتصر في هذه الحالات على الزخرفة فقط *

وكان الخط في كثير من الأحيان يمثل العناصر في زخرفة الانتاج الفني الاسلامي، بل انه كان في بعض الأحيان يمثل العنصر الزخرفي الوحيد فيه *

وبعد ، فإذا كان كل مجتمع قد تميز بفن من الفنون وجد فيه التعبير العقلي عن روحه وشخصيته وطموحه واستمد منه روح الابتكار اللازمة لنهضته ، فإن الخط العربي كان هو الفن العربي الاصيل الذي يعبر بمصدق عن الروح الاسلامي وطموحه وآماله *

التر احكام الاسلام في الفنون الاسلامية

على عكس ما يزعم البعض من أن الفنون الاسلامية بميدة من روح الاسلام وتعاليمه (٤٩) فإن هذه الفنون قد استوحيت في نشأتها وخصائصها مبادئ الاسلام وأحكامه .

فمن جهة يلاحظ أن الفن الاسلامي نشأ بدافع الرغبة في الاجادة والانتقان وأحرز في ذلك المجال لعب السبق على غيره من الفنون . والحق أن هذه الرغبة في الاجادة والانتقان مستمدة من الاسلام نفسه : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

ومن المعروف أن المبالغة في الانتقان والاجادة تؤدي بطبيعتها الى التسيق والتزييق مما ينسر لما الدرجة العظيمة من التأنق والزخرفة التي يلمتها الفنون الاسلامية .

ومن جهة أخرى تأثر الفن الاسلامي بدافع آخر هو الرغبة في تجميل المعيشة والاستمتاع بزينتها . وهذه الرغبة مستوحاة أيضاً من مبادئ الاسلام . قال الله تعالى : « يا أيها آدم خذ زوجكك ههنا كل من مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المرففين » . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي لتدبر أموا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون » (٥٠)

وبالإضافة الى ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى أنه زين السماء بالكواكب . ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للمظرين . (٥١)

وكان ميل الفنون الاسلامية الى الطابع الزخرفي من آثار عقيدة الاسلام ومن ثم بمدمن تقليد الطبيعة ومن محاكاة الواقع حتى يتعاضى مضاعفة خلق الله سواء في صور الكائنات الحية أو في الصور النباتية كما تفوق في مجال الزخارف الهندسية حتى بلغ فيها مرتبة لا يكاد يهتني فيها فن آخر . وطور المسلمون الزخارف الهندسية على أسس مدروسة وابتكروا أنواعاً من هذه الزخارف لم يسبقوا اليها ، ولا شك أن من عوامل تموقعهم في هذا المجال نبوغهم في الرياضيات بعامة بالإضافة الى احساسهم الموسيقي الذي اكتسبوه بفضل فطرتهم الشعرية (٥٢) .

وبالإضافة الى ذلك كان لتعاليم الاسلام اثر مهم في فن التصوير اذ كان من نتيجة تحريم الاسلام لتحسين المتفردات الدينية أن يحد التصوير في المجتمع الاسلامي من الدين فلم يدخل في المساجد حيث استبدل به الكتابة العربية ، (٥٢) ولم يستعمل في تجميل المصاحف ، حيث اقتصر على الزخارف الهندسية والعناصر النباتية المعشورة ولم يستعمل في توضيح كتب الدين ، ولم يتعد كوسيلة للإرشاد والوعظ .

وهكذا كاد أن يقتصر بالتصوير على توضيح الكتب العلمية وبعض الكتب القصصية والتاريخية .

غير أن يحد التصوير عن الدين هباله ميزة لم تنهيا للتصوير في الفنون الدينية الاخرى اذ جعله مدنيا في طابعه يحظر اليه كفر من فنون الدنيا لا يكمل من أعمال الأخيرة ، ومن ثم كان أقرب من غيره الى الفكرة الفنية العالصة ، كما صار ميدانه الحياة الدنيا بما فيها من مناظر طبيعية وأحداث بشرية .

كما تميز التصوير في المجتمع الاسلامي منذ البداية بالانحياز الى تصوير الطبيعة البهجة التي لا تتمثل فيها صور الكائنات الحية كما هي الحال في صور المسيحيين في الجامع الاموي بدمشق . وربما يرجع الانحياز الى هذه المناظر الطبيعية الى أن بعض علماء المسلمين لم يجدوا فصاحة في تصوير ما ليس فيه روح فصلا من أن في رسم هذه المناظر توجيها للانتظار الى جمال الطبيعة التي دعا الاسلام الى تأملها والى تدبر قدرة الله الذي أحسن كل شيء خلقه .

وهكذا يتضح مدى ما كان للمروية والاسلام من اثر في نشأة فنون العمارة والزخرفة الاسلامية .

دكتور حسن الباشا

Georges Marçais, L'art de l'Islam, pp. 5-18

(١)

(٢) أشكال زخرفية على هيئة صفوف من الميقات أو المعاريب الصغيرة بعضها فوق بعض تكو خطوط التنايل بين الأسطح الأفقية والرأسية والرواقيا - انظر
Dr. Hassan El-Basha, The Muqarnas, Minbar Al-Islam, vol. III
No. 1, pp. 34-37, vol. v, No. 1, pp. 22-25.

Richmoud, Moslem Architecture , P. 9 ; انظر أيضا
A. H. Christie, Islamic Minor Arts and their
Influence upon European Work, 'The Legacy of Islam, 1965' , p.
108 ; Marfin S. Briggs, Architecture, " The Legacy of Islam , 1965),
pp. 155-157; K.A.C Creswell, A Short Account of Early Maslim
Architecture, pp. 1 , 15-16.

وكذلك ديماند الفنون الإسلامية - ترجمة احمد محمد عيسى ص ٢٤ ، جاك - سي - ويست
الحضارة العربية ترجمة سليم عياد ص ٩ - ١٠ ، الدكتور كمال الدين سامح المصانير في
صدر الإسلام ص ٢ .

والشار إلى هذه المراجع غوستاف لويون - حضارة العرب ترجمة عادل رعيتر الطبعة الرابعة
ص ٨٧ ، والدكتور زكي محمد حسن - فنون الإسلام ص ٢٠١ - والدكتور محمد عبد العزيز
مرزوق : الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه ص ٩-١٠

(٤) الدكتور سيجريد هونكه - فنون العرب في أوروبا أو شمسي الله على العرب ترجمة الدكتور
سؤاد حسان ص ٢٤٩ .

(٥) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٣٩

(٦) المرجع نفسه ج ١ ص ٢٨

(٧) السيد حميد مدني : أطوم المشقة المنورة ، مجلد كلية الآداب ، المجلد الثالث ، السنة الثالثة ،
ص ٢١٧ - ٢٢٤ .

(٨) الدكتور سيجريد هونكه : المرجع السابق ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٩) سورة الطهر الآية ٢ . (١٠) سورة الاحزاب الآية ٢٦ .

(١١) سورة النساء الآية ٧٨ . (١٢) سورة الاعراف الآية ٧٤ .

(١٣) سورة الزمر الآية ٢٠ . (١٤) سورة الطهر الآية ١٤ .

(١٥) سورة النمل الآية ٤٤ . (١٦) سورة الطهر الآية ١٤ .

(١٧) مصيغ البخاري : مسالة ٨٨

(١٨) الارزقي : اعيان مكة طبعة مكة ص ٧٢ .

(١٩) مصيغ البخاري ج ٤ ص ٣٠

(٢٠) المرجع نفسه ج ٢ ص ١٩ .

(٢١) المنطليات ج ١ ص ١٧٥

(٢٢) مصيغ البخاري ج ٤ ص ٣٠ .

(٢٣) المرجع نفسه ج ٤ ص ٤٠ .

(٢٤) احمد تيمور : التصريح عند العرب ص ٨٢ .

(٢٥) المرجع نفسه ص ١٢ .

(٢٦) مصيغ البخاري : لباس ٤٦

(٢٧) الترمذي : جهاد ١٦

(٢٨) مصيغ البخاري : يسوع ٢٨

Ernst J. Grube, The World of Islam, pp. 8-11. (٢٩)

(٣٠) سورة التوبة الآية ١٢ .

(٣١) مصيغ البخاري : مسالة ٦٥ .

(٣٢) سورة التوبة آية ١٠٨

(٢٣) انظر ما جاء في هذا المصنف : ابن النجار : « الدرة الثمينة في اخبار النبوة » المسموحى : « وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى » خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى .

(٢٤) انظر في هذا المصنف

K.A.C.Creswell, Early Muslim Architecture,

Sauvoget , Lomosqvee Cmayyade de Medine (٢٥)

(٢٦) ذكر الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق في بحثه « المصنف الشريف » ص ١١ أن سالم بن مقل (ت سنة ١٢ هـ) هو من أطلق لفظة المصنف على القرآن الكريم بعد أن جمع في مصنف وضعت بين دفتين ، وتتل من الجاحظ أن الاحباش يقولون أن العرب قد نقلوا عنهم المصنف الذي يحفظ بحترى الكتاب ، وتتل من السيوطي في الانتقان أن القوم اختلفوا ما يسمره فقال أحدهم رأيت مثله في الحديث يسمى المصنف فأجتمعت رأيهم على ذلك .

(٢٧) سورة البقرة الآيات ١ - ٢

(٢٨) مسورة هود الآيات ١١ - ١٦ .

(٢٩) السيوطي : الانتقان في علوم القرآن ج ١ ص ٥٧ .

(٣٠) الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : المصنف الشريف ص ٢٣ - ٢٥

(٣١) قرئت هذه الزخارف في أول الامر بعذر من قبل البعض الذين كرهوا أن يضاف شيء إلى رسم مصنف عثمان غير أن هذا العذر لم يلبث أن تلاشى حين اتضح أن العناية بتدوين هذه المراسع لا تغلو من قائمة تعليمية . انظر المرجع نفسه ص ٤٢ .

Georges Marcais, L'Art de L'Islam , P. 12 ; (٤٢)

Ernst J. Grube, The World of Islam , p. 11.

(٤٣) القلقشندي : صبح الاعشى في صناعة الانشا ج ٢ ص ٧٩٠ .

(٤٤) سميت هذه التصانيف لذلك بالمتكلمات .

(٤٥) النويري : نهاية الارب في فنون الادب السطر السابع ص ١٨ .

(٤٦) انظر أمثلة أخرى في المرجع نفسه ص ١٤ و ١٥

(٤٧) ابن خلدون : المققدمة ص ٥٦١ - ٥٩٢ .

(٤٨) مر وضع علامات الامراب والاعجام بعدة مراحل أهمها حسب ما ذكرته المصادر وضع علامات

الأعراب على هيئة نقط على يد أبي الأسود الدؤلي لم وضع علامات الإصباح المرفوعة حالياً على يد نصر بن عاصم زمن الحجاج وكانت نقط الأعراب بلون مختلف عن لون الكتابة ثم تحولت نقط الأعراب القديمة إلى الأشكال المرفوعة حالياً على يد الفخيل بن أحمد .

(٤٩) انظر ما ذكره في هذا الصدد الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق : الفن الإسلامي : تاريخه

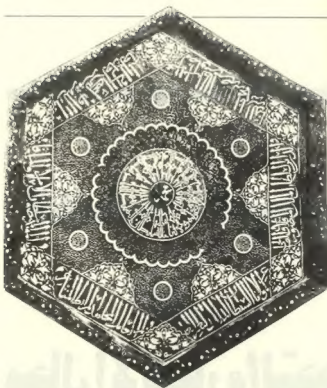
(٥٠) صورة الأعراف الأمازيغية ٣١ - ٤٣

(٥١) صورة المعبر الأمازيغية ١٦

(٥٢) انظر مؤلفات

Ernst 9. Grube , op. cit., p. 8, M.Bourgoïn

(٥٣) جرت العادة أن تحرف جدران الكنائس البيزنطية وغيرها من المباني غير الإسلامية بصور تمثل موضوعات دينية يلمد منها أغراض دينية وتعليمية ولبية وقد استبدل بهذه الصور في المساجد كتابات بالنقط العربي الجميل تحلق الأغراض نفسها وتماثل في أشكالها وتصميمها النسب الجمالية في الصور ان لم تكن نقوشها .



من روائع الفن الاسلامي

سطح كرسى عشاء من النحاس المثلث بالفضة والذهب ، سداسي الشكل ، وقطره ٣٩ سم مؤرخ
الصنع ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م . باسم السلطان الملك المنصور قلاوون ، وهو غاية في دقة الصنعة
النحاسية التي تجمع بين التزيين والتوثيق والتكفيت واستخدام الزخارف الفطرية الكوفية
(في الوسط) والليثة (في جوانب السدس) بما يكاد يكون متمم النظم .